

مدن الفواصل الهكسنسفة في دولة الإمارات العربية المتحدة

ناصر حسين العبودي*

مقدمة

تتمتع دولة الإمارات العربية المتحدة بموقع متوسط في جنوب شرق الجزيرة العربية في منطقة مهمة جغرافياً: فهي تقع على خليجين مهمين هما الخليج العربي وخليج عمان الذي يسمّى بحر العرب. هذا المثلث الشمالي الذي يقع امتداداً لرأس مسندم ذو طبيعة مختلفة، فهناك المناطق السهلية والصحراوية والساحلية والجبلية، وتبعاً لذلك تنوعت الحياة في تلك المناطق.

من هذه المناطق المختلفة برز دور حضاري وتاريخي للمنطقة بأسرها، وكان التعامل الخارجي فيها مهماً جداً للمنطقة كلها علاوة على الاتصالات الداخلية بين أجزاء الوطن الواحد. فالدراسات الأثرية الحديثة تشير إلى وجود مواقع كثيرة أقدمها يعود إلى سبعة آلاف سنة، وقد عُثر على ما يشير إلى ذلك على ساحل الخليج العربي وفي المناطق اليايسة الداخلية. ولاشك أن هناك تعاملات واتصالات مع الدول المجاورة، والتنقّل بين هذه المناطق المطلّة بالذات على حوض الخليج العربي وصولاً إلى مناطق حضارية أخرى في بلاد فارس شرقاً ووادي السند جنوباً من جانب، وبلاد وادي الرافدين شمالاً ومناطق الجزيرة العربية منها اليمن في الفترات المبكرة من جانب آخر. وقد استمرّت هذه الاتصالات وتبيّن في

* الأمين العام لاتحاد كتاب وأدباء الإمارات. خبير أثار - وزارة الثقافة والإعلام - دولة الإمارات العربية المتحدة

الفترات المتأخرة الإسلامية قوة هذه الاتصالات مع المناطق القريبة المجاورة وإلى مناطق بعيدة مثل بلاد الصين وتايلاند ولاوس وفيتنام.

كانت هذه الاتصالات والعلاقات تجارية وكان مفهوم المقايضة معروفاً في ذلك الزمان، وهذا ما يعزز ويؤكد أن المنطقة المسمّاة قديماً "مجان" كان لديها منتجات زراعية وصناعية تستطيع بها التبادل والاتجار مع منتجات شعوب أخرى في العالم القديم. وإننا على يقين أن هناك أقواماً وشعوباً استوطنت هذه البلاد بعد هذا الاتصال، ونقصد الإمارات قديماً، وهي جزء من المنطقة الجغرافية المسمّاة مجان، وأصبحت جزءاً من النسيج البشري لهذه المنطقة.

إن الاتصال والإنتاج وكثرة المتعاملين والمترددين والمستوطنين أوجد ما يُسمّى بالمناطق. ثم كبرت هذه المناطق لنُطْلَقَ عليها مُسمّى "القرى"، ثم أصبحت مدناً وتوزّعت على مختلف المناطق أولاً الساحلية ثم الصحراوية الرملية والجبليّة وفي بعض الجزر الكثيرة، خصوصاً في المناطق الغربية من الدولة.

لقد مرت على هذه الدولة مختلف الحضارات، وبرزت حضارات إقليمية خاصة بها امتزجت وتفاعلت مع حضارات مجاورة بدت عليها سماتها الخاصة بها، وهذه الحضارات المكتشفة في الإمارات قديمة العهد وتعود إلى العصور الحجرية الحديثة، واستمرت حلقاتها وتقطعت في بعض الأحيان حتى وصلت إلى الفترات الإسلامية المتأخرة. وإذا أردنا إعطاء فكرة مبسّطة عن هذه الأزمنة أو العصور الحجرية المكتشفة فإنه بجانب فترة العصر الحجري الحديث ظهرت حضارة أخرى سُميت "بفترة الألف الثالثة قبل الميلاد" أو "العصر البرونزي"، ثم أعقبها فترة أخرى سُميت بالآلف الثانية قبل الميلاد. فالآلف الأولى قبل الميلاد، أي "العصر الحديدي" وجاءت بعدها الفترة "الهلنستية". وقد حدّدت فترتها من القرن الخامس ق.م. حتى القرن الرابع الميلادي، والتي يمكن تسميتها "فترة المدن العربية"، ثم تلت الفترة الإسلامية وامتدّت حتى وقتنا الحاضر. هذا إضافة لفترات ليست ذات أهمية بالغة مثل بروز حقبة مسيحية محدودة الفترة الزمنية ظهرت في بعض أطراف الدولة في القرنين الخامس والسادس الميلادي. وقد تم العثور في هذه الفترة على بعض الكنائس والأديرة في بعض الجزر الغربية من الدولة.¹

1 - ناصر حسين العبودي، دراسات في آثار وتراث دولة الإمارات، المجمع الثقافي، أبوظبي 1990 وأيضا للمؤلف حقيقة قصر الزبياء في رأس الخيمة، الطبعة الأولى 2001 دبي ص 105 - 121.

لقد عمل علماء الآثار في مختلف هذه الفترات الحضارية وفي مختلف المناطق الجغرافية واكتشفوا ما يدلّ على أهمية المواقع المكتشفة والتي تنوّعت بين القرى والمدن. وقد تأثّرت هذه المواقع المكتشفة كما ذكرنا بالدول المجاورة، حيث عثر علماء الآثار على ما يفيد العلاقات الحضارية ذات الاتصال بجلب المنتجات من حضارات أخرى مثل وادي الرافدين كالحضارة السومرية والأكادية والبابلية والآشورية، ومن بلاد فارس كالحضارة الميديّة واللورستانية والأخمينية والساسانية، ومن بلاد السند. كما وجدت تأثيرات حضارية من بلاد الشام مثل التأثيرات التدمرية، ومن الأنباط كتأثيرات مدينة البتراء، ومن الجزيرة العربية من شرقها ووسطها مثل موقع الفاو، وتأثيرات يمنية من بلاد سبأ ومعين وحهمزير، وعلاقات أبعد من ذلك مع بلاد اليونان غرباً والصين شرقاً.

أمام هذه المقدّمة الحضارية والتي تثبت مقدار تواجد الإرث الحضاري والعلاقات المختلفة ظهرت مدن اكتشفت في السنين الأخيرة كان لها نشاطها التجاري، وقد اختلفت أحجامها ومساحاتها ومناطق تواجدها. وظهرت هذه المدن في مختلف الفترات الحضارية المكتشفة وتفاوت عمرها أيضاً بين الاستمرار لفترات طويلة لآلاف السنين إلى فترات لمئات من السنين إلى مدن أعيد استخدام مبانيها ومنشأتها في فترات حضارية متأخرة لاحقة. ولا يُعرف بالتأكيد كيفية نشوء هذه المدن وكيف اضمحلت وهُجرت ما عدا بعض الاقتراحات في أسباب ذلك. ويعود ذلك بالتأكيد إلى قلة الأبحاث والدراسات عن هذه المدن المكتشفة والمنهارة بشكل عام.

وإذا اتفقنا على اعتبار أن هذه المدن المكتشفة مدن ومواقع قديمة فإنها وقعت في مناطق جغرافية مختلفة، فبعض منها وقع في المناطق الصحراوية والبعض الآخر على سواحل البحار في اليابسة وبعض منها على سفوح الجبال وقممها. وقد تم اكتشاف العديد من هذه المدن في الخمسين سنة الأخيرة بفعل التنقيبات الأثرية الحديثة.

إن اعتمادنا على مسمّى مصطلح "مدن القوافل" نابع من اعتقادنا بأن هذه المدن كانت تقع على خطوط المواصلات البحرية أو البرية، وأن هناك اتصالات تجارية وتنقلاً للأفراد والبضائع والقوافل فيما بينها وبين مناطق مختلفة في داخل البلد نفسه ومع المناطق المجاورة. ولقد تمّ التأكّد من ذلك بعد دراسة اللقى الأثرية المكتشفة في هذه المواقع.

لقد تمّ التعارف في مناطق الوطن العربي على ذكر مدن القوافل التي تقع في المناطق الداخلية البرية الصحراوية فقط، إلا أننا في الإمارات لا بدّ من إضافة مدن السواحل

(السواحل والجزر) إلى مفهوم "مدن القوافل" بسبب أهميتها واتصالاتها وكونها مناطق للسكنى وبسبب اعتماد السكان على السواحل بالدرجة الأولى.

أما المدن الداخلية (الصحراوية) فهي تأتي بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية والنشاط التجاري، وفي المرتبة الثالثة تأتي المدن الجبلية والتي عادة ما تكون في مناطق بعيدة ووعرة ولم تنمُ بنمو المدن الساحلية أو الصحراوية.

مدن القوافل وفتراتهما الزمنية

وإذا ما أردنا بحث موضوع "مدن القوافل" فإن دراستنا حدّدت فترات المدن الواقعة بين فترة الألف الثالثة قبل الميلاد والمسماة "الفترة البرونزية" إلى الفترة "الإسلامية المتأخرة". وفي هذه الفترة يمكن ملاحظة نشوء المدن وازدياد عددها وتنوّع مناطقها الجغرافية، ويمكن اعتبارها بحق مدناً حضارية تضاهي ما وجد في مناطق الخليج المجاورة لدولة الإمارات العربية المتحدة. ولاشك أننا أمام مدن ذات صفات خاصة وبسيطة في الوقت نفسه، إضافة لكونها قليلة العدد في كل فترة حضارية من الفترات المذكورة سابقاً. ونوع ذلك إلى ظروف مختلفة وعلى رأسها ظروف المناخ الحارّ القاسي وقلة توفّر المياه العذبة والزراعة ووجود صحراء شاسعة وقاسية صعبة الاجتياز بالإضافة إلى مخاطرها الأخرى. ولكننا نعتقد أن مدن القوافل الساحلية كانت أحسن حالاً وأكثر تقدماً ورفاهية وأكثر اتساعاً وأماناً من المدن الصحراوية، وكانت تقيم علاقات فيما بينها وتقيم علاقات أخرى مع مناطق حضارية بعيدة وحضارات مختلفة. وهناك سبب آخر في قلة توفّر المعلومات الخاصة بهذه المدن ومنها قلة المعلومات المتوفرة والتي عادة ما يوفرها علماء الآثار المنقبون. فكثيراً من هذه المدن لم يستمر التنقيب فيها طويلاً عدا فترات بسيطة أو مواسم قليلة - الأمر الذي لم يوضح مكنوناتها الحضارية. وهي تحتاج إلى استمرار التنقيب والبحث فيها ببرامج علمية محدّدة ودورية ومدروسة بعناية، إضافة إلى قلة النشر أو النشر بلغات مختلفة تبعاً لجنسية البعثة المنقّبة الأجنبية الأمر الذي يصعب فيه الحصول على المعلومة ببسر وسهولة.

مدن القوافل المكتشفة بالإمارات ليست كثيرة العدد في كل فترة حضارية بل عددها محدود أو يكاد يكون قليلاً جداً، إلا أننا نستطيع أن نحصر بعضاً من هذه المدن في كل فترة حضارية تبعاً لأقدم الفترات حتى أحدثها.

ومنذ منتصف القرن الماضي لم نكن نعرف من هذه المدن شيئاً، إلا أن أعمال التنقيب أوجدت معلومات تفيدنا في إمكانية إطلاق تسمية مدن القوافل عليها. فعلى سبيل المثال

نستطيع أن نعتبر جزيرة أم النار أو (موقع أم النار) من مدن القوافل المشهورة ليس على مستوى الإمارات فحسب بل على مستوى منطقة حوض الخليج العربي والتي تعود إلى الألف الثالثة ق.م. تقع هذه المدينة على ساحل الخليج العربي مقابل جزيرة أبو ظبي (اليوم)، ولم تظهر مدينة أخرى بأهميتها وشهرتها عدا موقع "تل الأبرق" - بأم القيوين، وموقع "المزرعة" في كلبا على الساحل الشرقي للدولة المطل على بحر العرب. إلا أن الموقعين الأخيرين لا يزالان في طور التنقيب والدراسة وقد عُرف القليل عن اتصالاتهما مع المناطق الخارجية للدولة، ولم يُعرف الكثير عن الاتصالات الخاصة مع هذه المدن الثلاث فيما بينها.

أما فترة الألف الثانية قبل الميلاد فلا زالت غير واضحة المعالم ولا يُعرف الكثير عنها، لندرة المواقع المكتشفة فيها، إلا أن موقع "البحيص" بالشارقة يظهر على أنه موقع هام يقع على سفوح جبل البحيص. وهناك تجمع سكّاني ليس بالقليل بالنظر إلى مناطق السكن والورش وغيرها من المنشآت المكتشفة والتي تشبه الكهوف الواقعة في الشقوق السفلية للجبل. وما زال من المبكر إطلاق اسم المدينة على هذا الموقع، ولا ننسى وجود سلسلة المواقع من هذه الفترة في رأس الخيمة مثل موقع "شمل".

وتوجد في الإمارات مشكلة اختلاط لقي المواقع بين الفترة الحضارية والأخرى مثل الاختلاط بين فترة الألف الثالثة ق.م وفترة الألف الثانية ق.م، كذلك الاختلاط بين فترة الألف الثانية ق.م وفترة الألف الأولى ق.م، وأيضاً الاختلاط بين فترة الألف الأولى ق.م وفترة المدن العربية المسمّاة "المدن الهلنستية".

أما فترة الألف الأولى ق.م (العصر الحديدي)، فهي من الفترات المنتشرة بكثرة في الدولة. وقد أكتشفت مواقع ومدن في مختلف المناطق ويبرز على رأس هذه المدن موقع "هيلي" بمنطقة العين بأبي ظبي، وهو يقع في المنطقة الداخلية الصحراوية، - إضافة لموقع "الثقيبة" بالشارقة وموقع "القصيصة" بدبي في الألفين الثانية والأولى ق.م. ولم تتضح معالم هذا الموقع أو المدينة نتيجة عدم الاستمرار بالتنقيب بالموقع من ناحية، والبناء الحديث الذي أزال الكثير من المواقع في السنين الأخيرة من ناحية أخرى.

وفي المنطقة الشرقية من أبو ظبي/ العين يظهر موقعان مهمان هما "القطارة" وموقع "بديع بنت سعود"، وهما موقعان صغيران لا يرتقيان لمفهوم المدن. وهناك مواقع كثيرة في هذه الفترة ويمكن الرجوع إلى الدراسة الخاصة بهذه المواقع والتي ربما تتضح لنا في

السنين القادمة أهمية بعضها إذا ما اكتشفت مواقع جديدة منها يمكننا إطلاق تسمية مدينة عليها.²

فترة المدن العربية - الفترة الهلنستية

استمر في هذه الفترة ظهور بعض من مدن القوافل، ولا نعرف من هذه المدن إلا مدينتين هامتين حتى الآن - الأولى تقع في وسط الصحراء وتسمى "مليحة"،³ والثانية على ساحل الخليج العربي وتسمى "الدور". والغريب في أنه لا توجد إشارات واضحة عن وجود مدن أخرى رغم المسح الأثري الذي طال معظم المناطق الحضرية وبعض المناطق الصحراوية الأخرى، وقد حددت فترة هذا العصر من القرن الخامس أو الثالث ق.م حتى القرن الرابع الميلادي.

إن ما وجد من هذه الفترة غير المدينتين المذكورتين لا يتعدى مواقع صغيرة وبسيطة من وجود قطع تعود إلى هذه الفترة مختلطة مع فترات سابقة عليها زمنياً مثل العصر الحديدي وفترات لاحقة إسلامية مما يؤكد استغلال السكان للمواقع (المباني أو القبور) في مختلف الفترات الزمنية.

ويبدو أن قلة انتشار هذا النوع من المدن في هذه الفترة ربما يكون ناشئاً عن أسباب نجهلها، إلا أن سبباً واحداً ربما كان مقنعاً وهو أن وجود المدينتين بهذا الاتساع فرض على سكان المنطقة التجمع والعيش فيها الأمر الذي لم يستلزم ظهور مدن أخرى. فقد تجمع السكان كل حسب بيئته "في مدينة صحراوية ومدينة بحرية"، ونعتقد أن المدينتين وفرتا حاجات المجتمع. ولا بد من الذكر أن مدينة "مليحة" ظهرت قبل مدينة "الدور" بحوالي قرن أو قرنين من الزمان. وكان اضمحلال ونهاية "مليحة" أسبق من نهاية "الدور" بحوالي قرن. وقد ذكرت بعض الكتب اليونانية التي وضعها بعض الجغرافيين أو البحارة اليونانيين وجود مدينة أخرى شمال موقع "الدور" في "رأس الخيمة اليوم"، تُعرف باسم "أكيلا". وقد ذكر هذا الاسم في المصادر الكلاسيكية وذكر أيضاً أن هذه المدينة تقع بالقرب من رأس الخيمة، وحتى الآن لم يتأكد وجودها. إلا أن بعض علماء الآثار من الفرنسيين والإنجليز العاملين بالدولة أمكنهم تحديد موقع مهم من هذه الفترة قرب منطقة "خت". إلا أن التنقيب لم يتم في التل المقترح حتى الآن، والمنطقة المقترحة بعيدة نوعاً ما عن الساحل مما يدعونا إلى الاعتقاد أنها ليست

2 - العبودي، الفترات الحضارية المكتشفة في الإمارات، مجلة المنتدى (دبي) العدد 125 ديسمبر 1993.

3 - تقارير الآثار الأول، الثاني، الثالث. المسح الأثري في إمارة الشارقة. إصدار إدارة الآثار والتراث، الشارقة 89-1990

المدينة المقصودة والمذكورة في المصادر اليونانية القديمة باسم "أكيلا" وأن هذا التل قرب "خت" ما هو إلا موقع آخر من الفترة نفسها. والغريب أن الساحل الآخر من الدولة على ساحل عُمان لم يلاحظ فيه أي من هذه المواقع الكبيرة على الرغم من أهمية المنطقة الجغرافية ومن توفر مصادر المياه العذبة والتربة الزراعية. ولا بدّ هنا من ذكر بعض الإشارات التي أوردتها تقارير المسح الأثري التي قامت بها عديد البعثات العربية والأجنبية من وجود لقي أثرية في مناطق أثرية متفرقة تعود إلى هذه الفترة على ساحل خليج عُمان. وأهمية المنطقة الجغرافي تكمن في أنها تقع في منطقة مهمة ومتوسطة بين شمال الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية، لذا، فإن طرق المواصلات البحرية الإقليمية تقع على سواحلها للعابرين إلى شرق إفريقيا، وهذا الأمر يدعونا إلى التفكير كثيراً في عدم وجود مدينة مهمة على ساحل عُمان القريبة من دولة الإمارات العربية المتحدة تعود إلى هذه الفترة على الرغم من أهمية مواقع عُمان ووجود مدن ومواقع في غاية الأهمية. إن البحث في هذه المنطقة الجغرافية لا شك سوف يعزّز موضوع البحث العلمي ويدعو إلى إجراء مقارنات بين ما ورد في المصادر الكلاسيكية والواقع الأثري اليوم.

وبالعودة إلى مدينتي مليحة والدور، وهما تسميتان حديثتان لهما، فإن موضوع اسمهما القديم ملحّ ومهم، حيث لم يستطع علماء الآثار حتى الآن تحديد اسميهما بشكل دقيق ومقنع اعتماداً على المكتشفات الأثرية من الكتابات القديمة واللقى الأثرية عدا بعض المقترحات لمسمى موقع مليحة اعتماداً على كتابات عُثر عليها باللغة الآرامية في الموقع تشير إلى اسم مكاي أو مكيتا أو ماكي أو موكي. وفي الوقت نفسه ليس هناك اسم مشابه لها وجد في مكتشفات مدن أخرى من الفترة نفسها أُكتشف في الجزيرة العربية مثل الفاو وعين جوان وتاج في السعودية أو في تدمر أو البتراء في الشمال الغربي للجزيرة العربية.

وقد حدّدت مساحة مليحة⁴ بـ 4 x 5.2 كم². وهي بعيدة عن ساحل الخليج العربي بـ 45 كم غرباً. وأظهر الموقع مباني مختلفة منها حجرية وأخرى مبنية من اللبن إضافة إلى مبان مؤقتة اعتمدت على جريد النخل وأغصان الأشجار المحلية المتوفرة كثيراً في البيئة المحلية. ومن المباني تمّ التعرف على الحصون والقلاع والبيوت والمدافن والتي أتت على أكثر من ثلاثة أنواع. ولوحظ دفن الحيوانات مثل الحصان والجمال في مدافن البشر أو بالقرب منها. وفي الموقع اكتشفت لقي أثرية توضح علاقة هذه المدينة بالدول المجاورة البعيدة. فقد عُثر على لقي أثرية تعود إلى نهاية القرن الأول ق م تمثل قدحاً مزخرفاً بتكنيك ميلفوري ترجع

4 - مجلة سومر العدد 29. مديرية الآثار العراقية 1973.

صناعته إلى أصل سوري - مصري. وهناك قطع بارثية وأخرى تعود إلى العصر الساساني وقطع متشابهة مع ما عثر عليه بموقع "الفاو" بالمملكة العربية السعودية وهي مصنوعة من الألباستر. ولكن البحث أوضح أن هذه القطع ربما صنعت في موقع مليحة وليس في الفاو حيث اتضح أن المنطقة القريبة من الموقع فيها مقالع لحجر الألباستر (المرمر) وهي غير متوفرة في قرية الفاو السعودية. أما الدراسات التي قامت بها البعثة الفرنسية المشتركة مع الشارقة للآثار للموقع والذي بدأ التنقيب فيه عام 1972 على يد البعثة العراقية ثم واصلت البعثة الفرنسية التنقيب منذ عام 1984 فما زالت مستمرة. وقد حددت البعثة أهمية الموقع وعلاقاته الخارجية الحضارية والتجارية انطلاقاً من الاكتشافات الأثرية وبالأخص الفخاريات. فإذا قسمنا الموقع إلى فترتين زمنيتين رئيسيتين منذ القرن الثالث ق م وحتى القرن الثالث الميلادي اتضح من دراسة الفخاريات المعثور عليها أن علاقات الموقع التجارية الأولى في القرون الثالث والثاني والأول ق م كانت مع شمال الجزيرة العربية ووسطها. أما في القرون التالية بعد الفترة الأولى وهي القرن الأول والثاني والثالث الميلادي فقد تبدلت هذه العلاقة التجارية إلى علاقات مع مناطق الجنوب من الخليج العربي مثل بلاد فارس وبالتحديد في جنوب شرق إيران وبلوچستان ومناطق الهند. في هذه الفترة ظهرت مدن أخرى من الفترة نفسها وهي دبا وصحار في شبه جزيرة عمان. أما موقع مدينة الدور (أم القيوين) فقد نشط في القرون الثلاثة الميلادية الأولى مما يؤكد الدليل على انتقال التجارة إلى مناطق الساحل، حيث أن تجار "مليحة" كانوا يستخدمون موقع "الدور" بشكل أساسي ومتزايد ربما أكثر من مليحة والتي تتعامل بالتأكيد مع المناطق الواقعة في اليابسة في الجزيرة العربية وأصبحت استراحة قوافل تجارية. وهناك احتمال وارد أيضاً أن سكان مليحة ربما تحوّلوا واستقرّوا في الدور في الفترة الثانية لمليحة حينما أصبحت التجارة تتعامل مع المنتجات الآسيوية المرغوبة في مناطق وسط الجزيرة العربية وشمالها، إضافة إلى استعداد أهل المنطقة وتمتعهم بخبرات في التعامل البحري وحتى اللغوي مع الدول المجاورة الواقعة حول حوض الخليج العربي. وهناك إشارات يقترحها علماء الآثار أن مليحة انتهت كمدينة مهمة وخرجت في فترة زمنية سبقت مدينة الدور.

في موقع مليحة اكتشف كثير من اللقى الأثرية، إلا أن أهمها كان العثور على كتابات قديمة وجدت على الأواني الفخارية المصدرة إليها، منها كتابة باللغة اليونانية. كما عثر على كتابة أو "نقوش" بالخط العربي الجنوبي الذي يسمّى "المسند" والخط الآرامي، وهي كتابات من شمال الجزيرة العربية، أما خط المسند فقد كتب بلهجة "إحسانية" بمعنى أنه كتب في شرق الجزيرة العربية.

الأمر الثاني المهم في الموقع هو العثور على مسكوكات كلاسيكية وقوالب ضرب هذه المسكوكات عددها ثلاثة قوالب، واحد حجري واثنين من الفخار. ولقد ضربت تلك المسكوكات في الموقع نفسه، إضافة للعثور على مسكوكات ضربت في مناطق متفرقة من الجزيرة العربية وحوض الخليج العربي وصولاً إلى باكستان وكان معدن هذه المسكوكات من الذهب أو الفضة أو البرونز.

مدينة الدور⁵

تقع على جون صغير متفرع من الخليج العربي. وهي مدينة ساحلية تبعد حوالي 50 كم شمال مدينة مليحة الأثرية. تبلغ مساحتها بحدود كيلومترين مربعين نقبت فيها عدة بعثات منها عربية كالعراقية ومنها بعثات أجنبية وهي الدانمركية والبريطانية والبلجيكية والفرنسية. إن من أهم مكتشفات الموقع معبد مخصص لعبادة الإله "شمش" مربع الشكل إضافة إلى ثلاثة مذابح قرابين متجهة نحو الشرق. وقد اكتشف في الموقع الكثير من المباني الضخمة قياساً بظروف الأزمنة السابقة مكونة من عدة حصون وقلاع وبيوت فخمة تشتمل على غرف كبيرة وقاعات واسعة إضافة إلى قبور ذات تخطيط خاص مكونة من جزئين، جزء للدفن وجزء للزيارة، مزودة بسلم للنزول إلى أمام القبر. وقد وجد عادة بجانب غرفة الميت قرابين حيوانية مثل الجمال أو الخيول. وهذا الموقع كانت له أيضاً علاقات تجارية مع شمال الجزيرة العربية ومع مناطق الجنوب ومع دول الخليج العربي. ويشير العثور على نسرين منحوتين من الحجر الكلسي مقطوعي الرأس بارتفاع مترين إلى علاقة مع هذا النوع من الفن في شمال بلاد وادي الرافدين، حيث أن هذا النوع من التماثيل وجد في المنطقة العربية مثل العراق وبلاد الشام وفارس. كما وجدت بالموقع دمي طينية تسمى "التراكوتا" شبيهة بما وجد في الجزيرة العربية وبلاد الشام. كما اكتشفت بالموقع مسكوكات مختلفة وكتابات بالخط الآرامي وكتابات لأختام يونانية ورومانية تعود إلى عصر الإمبراطور هادريان.

إن فترة موقع "الدور" أحدث زمناً من موقع "مليحة" ويحدد بفترة منتصف القرن الثاني ق م حتى القرن الثالث أو الرابع الميلادي. والدور كما هو واضح مدينة مهمة في الفترة الكلاسيكية في منطقة الخليج، ويعتقد عالم الآثار البروفيسور دان بوتس أنه يُحتمل أن يكون موقع الدور هو عُمانة Omana الوارد ذكرها في كتابات "بلييني اليوناني"، وكانت مدينة عُمانة

5 - الآثار في دولة الإمارات العربية المتحدة. وزارة الإعلام والثقافة / إدارة الآثار والسياحة / أبو ظبي 1975.

ميناء مزدهراً واقعاً على الخليج العربي قريباً من هذا الموقع أو حتى هو نفسه، وكانت هذه المدينة بمثابة سوق تجارية مهمة، وقد حددت بالقرن الأول الميلادي.

فترة المدن الإسلامية

دخل الدين الإسلامي منطقة الإمارات اليوم متزامناً مع الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية، وما أدل على ذلك هو إرسال النبي (ص) رسالة إلى حاكم مزون المسمى "الجلندي" يدعو فيه إلى دخول الدين الجديد، دين الإسلام. وقد عرفت في تلك الفترة مدينتان مشهورتان هما دبا (الإمارات) وصحار (سلطنة عُمان).

وكما علمنا فلقد سبق الفترة الإسلامية تواجد بشري في المنطقة حيث أقيمت عدة مدن قديمة، وهو دليل على استمرار التواجد البشري في المنطقة. إلا أنه يلاحظ أن الاستقرار الإنساني اختلف موقعه عن ما تم تعيينه من مواقع في الفترة الكلاسيكية أو الفترة الزمنية الأسبق أي فترة الألف الأولى ق م وما سبقتها. لذلك نشاهد وجود مدن إسلامية مواقعها مختلفة وبعيدة عن ما يُعرف من مدن سابقة. ونكاد نقول إنها جميعاً وقعت على ساحل البحر وأن أغلبها شيد على ساحل الخليج العربي والقليل منها على ساحل خليج عمان. إن وقوع هذه المدن على سواحل البحار يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن العلاقات التجارية كانت السمة الرئيسية المكوّنة لهذه المدن، وأن لهذه المدن علاقات تجارية وحضارية متعدّدة. وقد لوحظ أن هذه العلاقات كانت في بداية تكون هذه المدن مع المناطق المجاورة، أما في الفترات المتأخرة فقد كانت مع مناطق بعيدة جداً عن ما يعرف اليوم بالإمارات. وتؤكد المكتشفات الأثرية الحديثة هذا الرأي من خلال العثور علىلقى أثرية مستوردة من مناطق قريبة عربية أو أجنبية إلىلقى أثرية أجنبية من مناطق بعيدة جداً مثل بلاد الصين شرقاً، وهذا أدى دون شك إلى اختلاط سكان المنطقة مع الوافدين من تجار إضافة إلى مستوطنين أجانب.

لقد عُرفت هذه المدن الإسلامية وهي من مدن القوافل والتجارة منذ فجر الإسلام، ودليلنا مدينة دبا الإسلامية الواقعة على الحدود بين دولة الإمارات وسلطنة عُمان على خليج عُمان وقد ذكرت هذه المدينة في فترة سبقت عصر الإسلام وهي المدينة الوحيدة التي تقع على ساحل خليج عُمان بالنسبة لأراضي دولة الإمارات، بينما هناك مدن أخرى إسلامية تقع في أراضي سلطنة عُمان مثل صحار وقلهات وقريات وغيرها من المناطق. أما الإمارات فقد ظهرت فيها مدن أخرى على ساحل الخليج العربي، والخليج ممرٌ مائي مهم في التجارة القديمة ليس في الفترة الإسلامية بل في فترات موعلة في القدم تعود إلى فترة العصور

الحجرية أي إلى الألف الخامسة ق م ففي الإمارات ظهرت مدن إسلامية كالجميرة والحيلة وكوش وجلفار والزورة، ويلاحظ أن هذه المدن أنها وقعت في المنطقة الشمالية من الدولة بجانب قرى وبلدات ذات أهمية ثانوية. وقد عرفت "توام" في المنطقة الداخلية قرب الحدود مع سلطنة عُمان، ولكن حتى الآن لم تتوضح كمدينة ذات معالم معمارية أو بقايا بنائية.

في هذا البحث سوف نستعرض بشكل سريع بعضاً من مدن القوافل التي ظهرت في الفترة الإسلامية، وهي:

1 - دبا'

من المدن المهمة في التاريخ الإسلامي، وهي تتوسط بحار هامة مثل الخليج العربي وبحر العرب (المحيط الهندي) وكانت لها علاقات تجارية مع موانئ على الساحل الهندي والأفريقي، وقد زارها الكثير من الرحالة العرب وغيرهم ووصفوها بوصف مظهرين ثراها وأهميتها التجارية وشهرة سوقها المعروفة بسوق دبا. ودبا اليوم مقسمة بين دولة الإمارات وسلطنة عُمان وتقع في مثلث رأس مسندم على مضيق هُرمز، ومناطقها هي دبا الحصن ودبا البيعة ودبا المهلب وهي كلها أسماء تذكرنا بالتاريخ الإسلامي القديم. تقع في دبا آثار مهمة حيث يتناقل السكان اسم أثر مهم ألا وهو مقبرة أمير الجيوش، ويقصد بذلك المقبرة التي دفن فيها قتلى المسلمين أيام حرب الردة ومنهم أمير الجيوش القائد المسلم المهلب ابن أبي صفرة، وهي عبارة عن مقبرتين إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، وليس هناك حتى الآن ما يؤكد هذه الرواية أثارياً.

دبا على موقعها الحديث والمحدد واسمها الذي استمر يطلق لآلاف السنين على نفس الموقع الذي تقع فيه المدينة الحديثة اليوم لا وجود لبقايا أثرية فيها لمدينة قديمة تعود إلى فترة صدر الإسلام، ولا حتى شواهد يمكن الركون إليها وتأكيد فترتها أثارياً، ولكن علينا التمسك بالقول بأنها هي مدينة دبا التاريخية المشهورة وعلينا البحث عن هذه المدينة المهمة في التاريخ الإسلامي، ربما يكون موقع دبا التاريخي هو نفسه الذي يسمّى دبا الحصن (الشارقة) وهي منطقة صغيرة تعجّ بالنشاط التجاري وبالكثافة البشرية حيث يشتغل أهلها في مهنتين في نفس الوقت هما الزراعة وتربية الحيوان وصيد الأسماك. وقد تكون المدينة القديمة اختفت أو مازالت مطمورة تحت المدينة الحديثة بسبب البناء المستمر والمتوالي على نفس المباني القديمة من جانب، إضافة لاضمحلال وزوال المدينة القديمة بسبب رداءة مواد

البناء القديمة المكونة من اللبن الذي يذوب ويتلاشى بمرور السنين. ولكن علينا عدم الركون إلى هذه النتيجة والاستمرار في البحث والتنقيب عن هذه المدينة التي ملأت شهرتها العالم الإسلامي والمناطق المجاورة وكتب عنها الرحالة الجغرافيون المسلمون.

في العصر الوسيط منذ القرن الرابع عشر الميلادي اكتسبت مدينة دبا أهمية أخرى تاريخية حيث ورد ذكرها في المصادر البرتغالية. وعلى أرض الواقع تتضح السيطرة العسكرية البرتغالية عليها وذلك لوجود مبان عسكرية من قلاع وحصون ذات تصميم هندسي خاص ومميز استغلت بعد ذلك من قبل مواطني هذه البلاد لهذه المباني وعملوا تحويلات وتعديلات على تخطيطها.

2 - جميرة⁷

تقع جميرة على ساحل الخليج العربي عند القسم الغربي لمدينة دبي على ساحل رملي. يبلغ طول الموقع 2 كم وعرضه نصف كم، وهذه المساحة تتشابه مع مساحات المدن القديمة في الإمارات التي تقع على سواحل البحار كشریط ساحلي يشبه مدينة جلفار الأثرية. وقد نقبت في الموقع البعثة الأثرية للجامعة الأميركية ببيروت عام 1968، ثم البعثة العراقية عام 1973/1972.

الموقع عبارة عن مجموعة مرتفعات رملية بعضها يتضمن أبنية قديمة، وتقول البعثة العراقية إن الموقع يعود إلى الفترة الإسلامية المبكرة. أما بعثة الجامعة الأميركية فتذكر أنه يعود إلى الفترة الساسانية، وإلى الفترة الأموية أيضاً (661-750 م) أي وجود طبقتين. وهي تستند في ذلك إلى وجود الفخاريات المزججة والعاذية والزخارف الجبسية التي تم العثور عليها.

المهم في هذه المدينة أنها إحدى المرباع الصحراوية لصغر مساحتها كما تقول البعثة العراقية، أما قناعتنا فهي أنها مدينة ساحلية كونها تقع قريبة جداً من ساحل البحر (500 متر تقريباً). وما زال سكانها حتى الوقت الحاضر يشتغلون في البحر من صيد للسماك وقبل ذلك بالغوص عن اللؤلؤ والسفر للتجارة والنقل مع الدول المجاورة.

إن مباني المدينة المكتشفة توضح أن لهذه المدينة اتصالات وعلاقات مع مدن ومناطق أخرى قريبة منها، وعلى سبيل المثال شيدت هذه المباني بتأثيرات عراقية، وذلك لتشابه

7 - تنقيبات البعثة اليابانية في جزيرة الحيلة. تقارير متحف رأس الخيمة، 1993.

مبانيها مع مباني تلّول الشعيية في البصرة جنوب العراق والتي تعود إلى الفترة الأموية وأوائل الفترة العباسية. من ناحية ثانية فإن أبنية الموقع تتشابه أيضاً مع عمارة وزخرفة خربة المفجر وقصر الحير الغربي ببادية الأردن في بلاد الشام، ودار الإمارة بالكوفة وتتشابه أيضاً مع المكتشفات قرب البرج الشمالي الشرقي لقصر الأخيضر بالعراق. وفي موقع أو مدينة جميرة أكتشف مسجد بعد العثور على محراب للصلاة، كما اكتشفت عديد المباني التي تظهر الغرف الكبيرة والمتوسطة، كما عُثر على قلعة كبيرة ذات جدران سميكة وقوية وأركان حجرية في الزوايا.

من ذلك يتضح أن هذه المدينة الإسلامية المبكرة الفترة كانت لها علاقات مختلفة مع عدة مناطق في شمال الخليج العربي بالعراق وبلاد الشام. ولم يلحظ من اللقى الأثرية أن هناك تبادل وعلاقات مع جنوب شرق الخليج العربي عدا إيران في فترة سابقة للحقبة الأموية أي الساسانية. ولا ننسى أن مدينة دبا المذكورة سابقاً ربما كانت مركز التبادل التجاري الأساسي والرئيسي مع المناطق المجاورة إضافة إلى مدينة صحار وقلهات وقریات على ساحل عُمان. وما مدينة جميرة إلا مدينة أخرى ثانوية الأهمية تزداد أهميتها في فصل اعتدال المناخ والذي يكون عادة في الشتاء كما هو الحال الآن.

المدن الإسلامية في شمال الإمارات⁸

المدن الثلاث التي نحن بصدد الكتابة عنها لاحقاً ضمن المدن الإسلامية القديمة في الإمارات تقع جميعاً في المثلث الشمالي المكون للدولة وهو مثلث صخري مكوّن من مرتفعات حجرية بارلتية. أن مدننا الثلاث التالية وهي جزيرة الحليلة وكوش وجلفار تقع أمام هذه المرتفعات على منطقة رملية ساحلية على الخليج العربي. وقد تمّ التعارف على تسمية هذا المثلث جغرافياً برأس مسندم، حيث تشترك سلطنة عُمان في بعض من أجزائه، وتقع عليه مدن قديمة أيضاً من مختلف الفترات الزمنية. تتميز هذه المنطقة بأنها منطقة صالحة للزراعة وتربية الحيوان وصيد السمك والبحث عن اللؤلؤ والتجارة البحرية، وتتوفر فيها المياه العذبة للزراعة من الوديان التي تمتلئ في الشتاء إلى الآبار وبعض الأفلاج الدائمة السريان طوال العام مما يشكل مكاناً مناسباً للعيش. ونتيجة لأهمية المنطقة جغرافياً وطبيعياً وقربها من فم الخليج (مضيق هرمز) ازدهرت هذه المدن وكانت لها علاقات مع المناطق المجاورة للخليج واستمرت هذه العلاقة التجارية إلى مناطق بعيدة إلى الشرق من أسيا. وكما كانت علاقات مليحة والدور في بداية ظهورها مع مناطق الوسط والشمال في الجزيرة العربية كذا كانت

8 - تنقيبات كوش / Kennet Drick / متحف رأس الخيمة، 1998.

علاقة الحليّة وكوش مع المناطق المجاورة الشمالية للخليج العربي وبلاد فارس، ثم تحوّلت كما تحوّلت علاقة مليحة والدور مع المناطق الجنوبية، إلا أن علاقة الحليّة وكوش وجليفار استمرت بعيداً جداً إلى أقصى مناطق آسيا حتى الصين. ولا شك أن المدن الثلاث لم تكن مدناً محلية في علاقاتها بل كانت مدناً تجارية ومدن عبور إقليمية تخدم عموم منطقة تجارة الخليج الآتية من مناطق وادي الرافدين وبلاد الشام ومناطق أخرى قريبة لها في أوروبا وبالعكس إعادة تصدير ونقل المنتجات الآسيوية إلى هذه المناطق. ولا ننسى أن هذه الطريق تشكل إحدى طريقين هامتين، إحداهما في الخليج العربي والأخرى عبر البحر الأحمر ومصر وبلاد أوروبا وصولاً إلى الإمبراطورية الرومانية. وللعلم فإن هناك مزودين لتجارة هذه المدن الثلاث من بلاد آسيا وجنوب الجزيرة العربية وشرق إفريقيا.

لقد لوحظ على هذه المدن وبالأخص مدينة جليفار من القرن 14-17 م أن علاقتهما التجارية في نهاية فترة ظهورها اقتصر على المناطق المجاورة غير العربية والبلاد الأجنبية في شرق آسيا، ولم تكن هذه العلاقة قوية مع المدن العربية المجاورة بشكل لافت أو ملاحظ مما يستدعي دراسة دقيقة للأسباب والظروف التي ربما حالت دون تحقيق ذلك التواصل التجاري مع المناطق العربية.

إن هذه المدن الثلاث المتعاقبة الفترات الزمنية تعرف في اعتقادنا بمفهوم منطقة جليفار الكبرى وهذا هو المسمى للمنطقة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية في العصور الإسلامية الوسيطة والمتأخرة. إذ أن ذبكر جليفار استمر زمناً، وما زالت المنطقة حتى اليوم تسمى بهذا الاسم، إن هذا الذبكر صحيح، إلا أن الموقع على الأرض تبدّل وتحرك إلى ثلاث مناطق أو مدن رئيسية وهي التي ذكرت سابقاً. وإن مسميات هذه المدن ما هي إلا أسماء حديثة ولا يعرف حتى الآن أسماء هذه المدن القديمة الواقعة في إقليم أو منطقة "جليفار". وللعلم فإن ثقافة جليفار الفنية والتي تميّزت بها من خلال تكنيك المصنوعات الفخارية معروف في عموم منطقة الخليج العربي الشمالي والجنوبي ومناطق على ساحل بحر العرب في شبه القارة الهندية وشرق إفريقيا.

3- جزيرة الحليّة

أولى هذه المدن الثلاث موقع سكني يقع على جزيرة الحليّة في منطقة شمال الإمارات (رأس الخيمة) في الجزء الشمالي الشرقي للجزيرة العربية. وهذا الموقع عبارة عن ميناء

9 - جليفار من خلال التنقيبات الأثرية.

بحري قديم للبلدة أو القرية. وقد أظهرت الآثار المدروسة فخاراً إسلامياً يعود إلى فترات مبكرة. والجزيرة مغطاة بالرمال ونبات المنجروف (القرم) وهي تقع على جزء من خور الرمس. ولقد تم مسح هذا الموقع في عام 1977 من قِبل جون هانسمان (J. Hansman)، وذكر أن المدينة ما هي إلا معسكر فارسي. وقد تم التنقيب في الموقع عام 1994 لعدة مواسم من قِبل بعثة الآثار اليابانية. وقد تأكد من الملتقطات أن الموقع يعود إلى ثلاث فترات زمنية أقدمهما إلى القرون 5-8 الميلادي، كما تم جمع فخار عباسي يعود إلى القرون 7 و9 و10م من تلؤل المنطقة (A). أما الفخار الساساني الأموي فقد جمع من تنقيبات أثرية لطبقة سفلية من التل في المنطقة (D)، وإن بعض المكتشفات يغلب عليها تاريخ القرنين (9 و10م) وبعضها على نفس نمط المعثور عليه في سامراء العراق من الفترة العباسية. كما تم العثور على مسكوكات (نصف مسكوكة) من بلاد الصين عليها كتابة صينية تحدد زمنياً يرجع إلى القرون 7 و8 و10م، كما يمثل الجزء الثاني من استيطان الموقع فترة القرن 15-16م والقرن 16-17م حيث عثر على الكثير من اللقى الأثرية التي تؤرخ لهذه الفترة. ومما عثر عليه فخاريات عادية ومزججة ومسكوكة برونزية وقطع من البرونز والحديد والعظام وأوان زجاجية. ومن آسيا عثر على فخار وإناء صيني مطلي يعود إلى القرن 14-15م وفخار تايلندي أخضر اللون يعود إلى القرن 15-16م، وفخار أبيض مزجج معتم من بورما (مانيمار) يعود إلى القرنين 16-17م وفخار لانية فارسية.

وخلال التنقيب عثر على بعض المنازل وعلى أسس لبرج عسكري. ويبدو أن سكان هذه المدينة كانوا من الصيادين والتجار ويتضح أن صداماً عسكرياً ربما ضرب المدينة حيث تهدم ميناؤها البحري. وأخبر أن من سكنها في القرنين 9 و10م أنها كانت قوة عسكرية خلال الحقبة العباسية وإن سكان المدينة كانوا يسكنون على طول الساحل وأن التجار تميزوا بأنهم يسكنون بيوتاً من الحجر.

4 - كوش¹⁰

مدينة إسلامية تبعد عن رأس الخليج 60 كم شمالاً. تقع في منطقة شمل من رأس الخيمة وتبعد عن البحر مسافة تزيد عن 5 كم غرباً. وموقعها عبارة عن تل يُعتبر أكبر تل أثري في الإمارات، وتبلغ مساحة هذا التل 100 x 120م بارتفاع 6 أمتار فوق سهول فيضانات الوديان. كما توجد طبقات استيطان تحت التل بعمق 5.2 م، وهذا التل عبارة عن اتصال ثلاثة تلال بعضها مع بعض. تم التنقيب في هذا الموقع عام 1994 من قِبل بعثة تابعة لمتحف رأس الخيمة حيث عُثر على مساكن وأفران طبخ ومدبسة.

10 - مجلة سومر / العدد 31، سنة 1975. وأيضاً الآثار في دولة الإمارات العربية المتحدة.

وقد تبين أن الموقع يعود إلى فترة زمنية طويلة تبدأ من القرن 9 حتى القرن الـ 18م. وقد عُثر على بيوت مبنية من اللبن تعود إلى القرن 12م وبيوت مبنية من جريد النخل المسمى "الدعون"، وتم إرجاع تاريخ بعض الجدران المبنية من الطين إلى الفترة الإسلامية المبكرة والفترة الساسانية.

كما عُثر في الموقع على فخار بارثي وساساني وإيراني وفخار سامراء كله يعود إلى القرن التاسع الميلادي، وفخار من إيران من بلاد فارس من منطقة قصر أبو نصر حُدثت فترته الزمنية بالقرن 12-13م. كما اكتشف فخار صيني وسيلادون من القرن 12م إضافة إلى فناجين قهوة وفخار يماني من زبيد يعود إلى القرن 12م، وأوعية عليها خطوط ونقوش كوفية. كما عُثر على حبوب القهوة المحمصة من النوع المشهور باسم أرابيكا تعود إلى القرن 12م، وبعد دراستها وفحصها تبين أنها من محاصيل اليمن.

كانت كوش تعتمد على الزراعة حول المدينة كما كانت تعتمد على البحر، وكانت بمثابة مركز تجاري لتوزيع الفخاريات (وربما أمور تجارية أخرى) الآتية من بلاد فارس من منطقة قصر أبو نصر. كذلك المنتجات الآتية من جنوب شرق آسيا، كما عُثر في الموقع على مسكوكة إسلامية ذهبية عام 1997 تزن غراماً واحداً سُكَّت في عهد الحاكم عمر بن يوسف الوجيهي خلال القرن العاشر وقد عُثر على شبيه لها في سلطنة عُمان أيضاً.

ويُعرف المختصون بمتحف رأس الخيمة كوش بأنها جلفار القديمة، وأن جلفار الحديثة هي التي تقع الآن على الساحل. وقد انتهت كوش كمدينة تجارية مهمة ذات اتصالات محلية وإقليمية ومع شرق آسيا في القرن 14م حيث تحول النشاط إلى مدينة جلفار الساحلية ذات الشهرة الكبيرة. ويشير الباحثون الأثريون إلى أن نزوحهم من المدينة كان بهدف البحث عن منطقة أكثر أمناً وأرحب مكاناً تحفل بالرزق الوفير للاستقرار فيها، وأن أجيالاً تعاقبت على سكن كوش حتى ما قبل مائتي سنة تقريباً.

5- مدينة جلفار¹¹

تقع جلفار مباشرة على شاطئ الخليج العربي، وهي اليوم شريط من (الندود) التلال بطول حوالي كيلومترين وبعرض 500 متر. وهي مشهورة في الأدبيات والذاكرة الشعبية لأبناء الإمارات، وقد ذُكر عنها الكثير من القصص الأسطورية والأخبار وعن كنوزها المدفونة في باطنها. وقد ورد ذكرها في المصادر العربية القديمة وفي الكتابات الفارسية. جاء ذكرها

11 - جلفار من خلال التنقيبات الأثرية.

في رواية تفيد أن أسطولاً بحرياً للمسلمين توقّف في بلاد فارس (إيران) سنة 736 م، وأن جيشاً من المسلمين من العراق نزل جلفار عام 696 م وقاتل أباض عُمان الداخل. وفي القرن الخامس عشر الميلادي وقعت تحت يد ملك هرمز، وفي عام 1510 م عبرها القائد البرتغالي "دورت باربوسا" وذكر أن سكّانها هم في حالة غنى وأن لديها بحرية ضخمة وتجار جملة، وأن المنطقة ذات مصايد أسماك ضخمة ويزور اللؤلؤ (حبات اللؤلؤ).

لقد عملت عدة بعثات في التنقيب في هذه المدينة المشهورة الهامة، ومن هذه البعثات (البعثة العراقية عام 1972/1973). وفي عام 1988 عملت بعثات محلية وبريطانية وفرنسية وألمانية ويابانية في مشروع تنقيب مدته خمس سنوات.

جلفار التاريخية تنقسم إلى قسمين رئيسيين الأول يسمى "المطاف" والثاني سمّي "الندود" إضافة إلى منطقة تعرف "بالدريحانية".

إن تقسيم الموقع ناشئ عن وجود خور أي لسان من مياه الخليج بعرض 30 متراً يقسم المنطقتين إلى منطقتين متميزتين. وقد كان القسم الذي تقع فيه المطاف هو أعلى التلال وأكثرها امتداداً وأشدّ غنى من القسم الثاني، وقد تآكل جزء من القسم الشمالي بفعل مياه المدّ والجزر التي تشكّل تياراً سريعاً أدى إلى ظهور أجزاء من الأبنية القديمة، ويمكن القول إن التيار ربما جرف أكثر من مائتي قدم عرضاً وبمسافة كيلو مترين طولاً (البعثة العراقية 1973).

أول البعثات التي عملت في هذه المدينة كانت البعثة العراقية، وقد عثرت على الكثير من اللقى الأثرية والمباني. وكان مفتاح تاريخ المستوطن هو كسر الفخار الصيني (البورسلين)، والذي كان يغطي معظم مساحة الموقع. ويذكر أن فخّاريات المستوطن لا تقل بأنواعها عدداً عن فخّار المستوطنات المكتشفة في بلاد وادي الرافدين أو مستوطنات الشرق القديم المنسوبة لفترات حضارية متأخرة. وقد عثرت البعثة على الفخّاريات العادية المسماة فخار جلفار، والفخّاريات المزججة والملونة والسيلادون والخزف الصيني (البورسلين) والزجاج والأواني المعدنية المختلفة من حديد وبرونز. وقد حدّدت البعثة زمن استيطان المدينة من بداية القرن السادس عشر الميلادي، إلا أن بعثات أجنبية أخرى حدّدت القرن الرابع عشر لبدائته. وقد عثرت البعثة على مسكوكة مؤرخة في عام 913 هجرية، أما بعثة متحف رأس الخيمة فقد عثرت على مسكوكات تعود إلى الفترة بين القرن 14 م إلى الفترة المبكرة من القرن 17 م كانت مضروبة في "جاروم" وهي جزيرة هرمز في مضيق هرمز في الخليج العربي.

وقد ركزت البعثة الألمانية في جلفار في تنقيباتها في الفترة من عام (1990-1994) على مسح المدينة والتحرّي والتنقيب عن سور المدينة والذي تبين أنه كان مبني من طين قوي وخشن ومن طابون مصنوع من رمل ناعم جداً وملصق بملاط صلبصالي. ويظهر منه حوالي 50 سم ، وهو بسمك 3 أمتار وارتفاع 3 أمتار. وقد تميّزت جلفار في هذه الفترة بوجود بيوت مبنية بالطابوق (اللّبن) والحجارة، وعثر أيضاً على أسس بيوت من العشيش الذي كان يعتمد في تكوينه على جريد وجذوع النخل وأغصان الأشجار. كما عملت بالموقع بعثة آثار بريطانية منذ العام 1989 لمدة خمسة مواسم، وكان تركيز البعثة في عملها على موقع لمسجد طبقاته متعاقبة بلغ عددها خمس طبقات كل واحدة تقع فوق الأخرى، وكانت المساجد الثلاثة الأولى مبنية من اللبن بمقياس 10 x 10 أمتار، والمسجد الثاني والثالث بمقياس 10 x 20 متراً. وهذا يشير إلى توسّع المدينة مع ازدياد عدد سكّانها وهو يضم ثلاثة صفوف من الأعمدة المستطيلة. ثم أصبح المسجد الثاني بقياس 20 x 20 متراً. وتحدّد البعثة بأن تاريخ المسجد يعود إلى القرنين 16 - 17 م. وتذكر المصادر البرتغالية أن البرتغاليين استخدموا عام 1621 م هذا المسجد كهدف عند قذف سكان جلفار الذين ثاروا ضد احتلال البرتغاليين لمدينتهم مما يؤكد أن المسجد الأول ربما أسس قبل سنة 1621 م. وقد وجدت البعثة الكثير من اللقى الأثرية الآتية من بلاد فارس ومن الهند وبلاد جنوب شرق آسيا.

كما عملت البعثة الفرنسية بهذا الموقع، وقد اتخذت موقع قلعة المدينة مكاناً لأعمالها. وقد عثر على أبراج مدوّرة ومستطيلة عسكرية بالإضافة للقلعة. وقد أتت قياسات جدران القلعة بسمك 75.0 متراً وارتفاعها 60.0 متراً، وتم العثور على سيراميك (فخّاريات) مجلوب من الشرق الأقصى يعود إلى ما بين القرنين 14-17م وهو سيراميك صيني وفيتنامي وتايلندي، ومن جنوب غرب الهند وإفريقيا ومن بلاد فارس. كما عثر على فخّاريات "كنج" (Khung) وفخّار معمول بأفران بهلا (سلطنة عُمان). وتشكّل الفخّاريات المعروفة بفخّاريات جلفار 20٪ من المواد المكتشفة عام 1989. كما عثر أيضاً على سيراميك من باكستان.

وقد عملت كذلك البعثة الأثرية اليابانية التابعة لجامعة كنازاوا لعدة مواسم ما بين عام 1988 وعام 1993، وركّزت عملها على المناطق السكنية من بيوت وممرّات (سكيك) وبعض القبور. وعموماً لا تختلف نتائج أعمالها عن نتائج التنقيبات للبعثات السابقة البريطانية والفرنسية والعراقية. وسنورد هنا أهم النتائج الخاصة بالمناطق السكنية، فقد لاحظت البعثة أن البيوت عبارة عن غرف تحيط بساحة وسطية، ولاحظت وجود ممرات بين البيوت، وأن بعض

البيوت بُنيت من أعمدة خشبية، كما كشفت البعثة مبدئياً بعمق 2 x 5.2 متراً وبُني جدرانها مبنية بالحجارة. ان مناطق تنقيب البعثة أظهرت سبع طبقات (مستويات) من مناطق العيش بالنسبة للسكان، وظهر في هذه المناطق الكثير من حفر الأفران التي أتت على أربعة أنواع مختلفة بعض منها استخدمت فيها جرار كبيرة مقلوبة ذات ثقب.

ومن أهم مكتشفات البعثة منطقة القبور التي كانت تتكون من ثلاث إلى أربع مبانٍ فوق طبقة الطين، وكانت القبور مبنية. وقد رُفِّعت البعثة هذه القبور من أ و ب و ج ود. كما وُجدت غرفة مستطيلة أو حوض (بركة) كان ملاصقاً لهذه القبور. وقد عُثِر في هذه القبور على بعض البلاطات عليها كتابة باللغة العربية واللغة الفارسية. وتشير البعثة إلى أن هذه القبور ربما تعود للقرن الخامس عشر الميلادي والنصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي.

يتضح لنا من هذه المدينة المشهورة أنها كانت تقع على طرق التجارة الدولية في ذلك الزمان، وكانت لها علاقات مميزة مع دول جنوب شرق آسيا إضافة إلى المناطق المتاخمة لها. ونعتقد أن هذه المدينة استفادت من سقوط مدينة هرمز في يد البرتغاليين. وقد كانت بمثابة موزع رئيسي لمنتجات آسيا إلى مناطق مختلفة في الخليج والجزيرة العربية.

6 - مدينة الزورة¹²

تقع هذه المدينة في (عجمان) على ساحل الخليج العربي، وتفصلها خور عن مدينة عجمان، والموقع عبارة عن كتبان رملية. نُقِّبت البعثة العراقية في هذا الموقع عام 1973، حيث أقامت مجسّات أثرية في مناطق متفرقة من الموقع. وهناك بالقرب من هذا الموقع تل يسمى "ليوارة" يقع شمال الزورة. وتتشابه فخاريات الموقعين، وهي نفس الفخاريات التي تسود المنطقة من دبي إلى جلفار، ومنها فخار محلي مصنوع في جلفار، وفخار مستورد حُدّد بالفترة من القرن 15 و16م، وهذه الفخاريات مزججة قليلة الغور. وتشير البعثة الدنماركية بالبحرين إلى وجود فخار بالبحرين شبيه لما وُجد في الزورة حيث أُرِّخ بالقرن 12 الميلادي مستنداً لكسر الفخار (البورسلين) الصيني الذي وجد مع هذا النوع من الفخار. كما وُجد شبيهاً له أيضاً في موقع كلوا في الطبقة الثالثة في شرق إفريقيا وأيضاً فخاريات في سيراف في بلاد فارس.

12 - مجلة سومر العدد 31، سنة 1975. وأيضاً الآثار في دولة الإمارات العربية المتحدة.

هذه المدينة صغيرة ظهرت في نهاية فترة جلفار، وكانت لها علاقات تجارية ساحلية مختلفة مع الدول المجاورة لها، وللأسف لم يستمر التنقيب في الموقع لإظهار محتواه، وتم إزالة الكثير منه، فبات يتعذر الآن العثور على لقى أثرية أو مبانٍ فيه بالقدر الذي يكشف مدينة مهمة في القرون الماضية.

الخلاصة:

تناول بحثنا استعراض أهم المدن القديمة التي نعتقد أنه ينطبق عليها مسمى "مدن القوافل". والحقيقة أن هذه المدن حديثة الاكتشاف في معظمها عدا مدينتي دبا وجلفار اللتين كانتا تعرفان لدى عامة الناس على أنهما من المدن القديمة المعروفة والمشهورة بين الناس في الإمارات وبعض الدول المجاورة. ولكن هذه المدن ليست قائمة اليوم كما كانت في أول عهدها بل إننا نعرف موضعها وإن كان قد تبدل كل شيء فيها. أما المدن الأخرى المذكورة فهي مدن تم اكتشافها في نصف القرن الماضي، وقد اكتشفت من قِبل علماء الآثار كمواقع فقط، ولكن بعد الدراسة وازدياد أعمال التنقيب أصبح من الممكن إطلاق تسمية مدن عليها وذلك لكبر حجمها وعلاقاتها الواضحة واتصالها مع المناطق الأخرى القريبة والبعيدة، وقوة هذه العلاقات خصوصاً الاقتصادية والتجارية منها. لكن هذه المدن ما هي إلا أطلال لتاريخ قديم وتصنف على أنها مبانٍ أو مدن أثرية ليس أكثر من ذلك، وما يجري في هذه المدن ليس أكثر من تنقيب ثم ترميم لأبرز معالمها المعمارية الواضحة، ومن جمع مكتشفاتها من اللقى الأثرية ودراستها ومعالجتها ثم وضعها في المتاحف الإقليمية أو متحف للموقع، وهي بذلك أصبحت مناطق أثرية سياحية. وهذه المدن محافظ عليها بشكل عام، ولكنها ما زالت كوضع المدن الأخرى التقليدي في الوطن العربي ما هي إلا مزارات.

من هذا المنطلق يجب علينا أن نركز على تعميق نظرتنا البحثية في ما تم اكتشافه عن هذه المدن كما ينبغي أن يستفاد منها أكثر من كونها مدناً أثرية فقط والتطرق إلى دراسة الحالات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فيها. ونعتقد أننا سوف نكتشف مدناً أخرى جديدة في السنين القادمة نتيجة لاستمرار أعمال المسح والتنقيب في الوطن العربي.

جدول يوضح مدن القوافل المكتشفة بدولة الإمارات العربية المتحدة

م	العصر	المدن المكتشفة	نوع الموقع
1	الألف الثالث ق.م.	أم النار (أبو ظبي) الأب رق (أم القيوين) المرزعة (كلبا) الشارقة	ساحلي ساحلي ساحلي-صحراوي
2	الألف الثاني ق.م.	البحيص (الشارقة) مواقع شمل (رأس الخيمة)	جبلي جبلي
3	الألف الأول ق.م.	هيلي / العين (أبو ظبي) الرميلة / العين (أبو ظبي) الثقيبة (الشارقة) القصيص (دبي) مويلح (الشارقة)	صحراوي صحراوي صحراوي ساحلي صحراوي
4	فترة المدن العربية (الهلنستية) من القرن 3 ق.م. إلى القرن 4 الميلادي	مليحة (الشارقة) الدور (أم القيوين)	صحراوي ساحلي
5	الألف الثالث ق.م. فترة المدن الإسلامية	المبكرة: دبا (الشارقة - الفجيرة) جميرة (دبي) توام المتأخرة: الحليبة (رأس الخيمة) كوش (رأس الخيمة) جلفار (رأس الخيمة) الزورة (عجمان)	ساحلي ساحلي جبلي ساحلي ساحلي ساحلي ساحلي